(١)
هـذا هـو المـربـط .. فأيــن الفــرس* ؟

مربط الفرس كناية شائعة الاستعمال يراد بها الغاية المنشـودة أو لبـاب الموضوع، وفى أيامنا هذه مربـط الفرس هـو الخـروج بـالبلاد مـن أزمتـهـا الراهنة، وهــى فــى الظـاهر أزمـة اقتصاديـة، ولكـن الحقيقـة أنـها أزمـة أخلاقية، ولا أريد بالأخلاقية هنا ما يشـيع بـين النـاس مـن أن قواعدنـا الأخلاقيـة قـد وهنـت وضعفـت، ومقاييسـنا الأخلاقيـة قـد اهـتزت، لأن الأمر – إذا أنعمت الفكر فيـه – وجدتـه أعمـق وأبعـد ممـا يظنـون، فـإن الأخلاق أو الأخلاقيات شيء واسع، يضم قواعد المعاملات من أدب وأمانة وصدق وحياء وما يدخل في معناها، وتدخل فى الأخلاقيات مواقف الناس بعضهم من بعـض، ومواقفـهم مـن العمـل الـذى يعملونـه، ومواقفـهم مـن المسئوليات الموكولة إليهم، ومواقفهم من أوطانــهم التـى هـى أمانـات فـى أعناقهم، وهذه كلها دخلتـها علـل وأمـراض شـتى، جعلـت الأزمـة فـى الحقيقة أزمات أخلاقية..

وعن هذه الأزمات نشأت أزمة نفسية أو حالة اكتئاب نعيشـها جميعـا على درجات وأشكال متفاوتـة، وهـى حالـة اكتئـاب معديـة انتقلـت مـن إنسان إلى آخر، حتى عمت الجميع، حتى الذين لا يملكون مبررا واحـدا من مبررات الاكتئاب، بل هم سبب من أسباب الاكتئـاب القومـى العـام، حتى هؤلاء أصبحوا هم الآخرون يشكون من الاكتئاب، وقد رفقت صاحبـا إلى فى زيارة لرجل من الذين يسببون الاكتئاب للناس، فهو يملك – فيمـا يملك – عمارة جميلة من اثنى عشر طابقا فـرغ مـن بنائـها، توقـف عنـد مظهر من مظاهر التشطيب، فالحكومة لا تستطيع إرغامه على إسـكانها،

* نشرت هذه المقالة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٨٦م .

لأن بناءها – فيما يقول هو ومهندسه – لم يفرغ بعد، وهى من ثم لا تصلح للسكنى بحالتها الراهنة، ولكنك إذا ذهبت تفاوضه فى شقة أو دكان، ورضيت بالثمن الذى يفرضه عليك، ودفعت المبلغ المطلوب مقدما وكاملا، وقع معك العقد، وتسلمت منه الشقة فى بحر أسبوعين، والمبلغ الذى طلبه الرجل أصابنا نحن الاثنين بالاكتئاب، لأنه باهظ جدا، ولكن صاحبى معلق القلب بالشقة، فهى لابنه الذى تخرج طبيبا من عشر سنوات، وقد توقف فى كل ميادين حياته، ولم يعد يستطيع حراكا، فهو يريد الشقة ليتخذ من نصفها عيادة، ومن نصفها الثانى مسكنا، فهو خاطب ولا يستطيع زواجا، وسنه تجاوزت الثلاثين، وفى النهاية ينتصر صاحب البيت، وفى حالة الاكتئاب التى أصابت صاحبى دفع خمسة وخمسين ألف جنيه مقدما فى شقة مساحتها مائة وعشرون مترا فى الدور فوق الأرضى، فهى ملقف تراب الشارع ومجمع ضوضائه، ولكن البيت يقوم فى شارع تجارى مطلوب، وقد ركز الرجل فخامة المبنى كلها فى المدخل، فهو بديع واسع فيه درجات ورخام أبيض ومجزع وعمدان وأنوار مباشرة وأخرى غير مباشرة، وهناك مصعدان آخر طراز (لن يستفيد منهما ابن صاحبى لأن شقته فى الدور فوق الأرضى، ولكنهما قطعا سيضفيان على العيادة رواء وفخامة يرفعان قيمة الكشف!) وفيما كان صاحب العمارة يتخذ إجراءات توقيع العقد، بعد أن ذابت الثلوج بيننا وبينه، فتح لنا قلبه – إن كان له قلب – وجعل يشكو من الحكومة والإجراءات والموظفين والأسعار والاستيراد، حتى شرق صوته بالدموع وكاد يبكينا، وإذا بهذا الرجل الذى أصابنا بالاكتئاب العنيف عندما قبض المبلغ الرهيب أشد اكتئابا، وتبينا أن عدوى الاكتئاب قد أصابته، لأنها فى الحقيقة أصبحت مرضا قوميا عاما، خاصا بنا نحن المصريين، يمكن أن نسميه باكتئاب المصرى، كما نقول الحصبة الألمانية أو الحمى المالطية، وأقترح على أصحابنا الأطباء أن يكتبوا عنه أبحاثا يلقونها فى المؤتمرات العلمية التى يشاركون فيها بلاد الله، وأقترح عليهم أن يطلقوا عليها اسما علميا لاتينيا

هو Egyptian Depression ورمزه العلمي D. E. ، أو Pscudo Deprescio ورمزه العلمي P. D. ، أما اسمه العلمي القومي العام فهو Egyptian Depression Syndrome .

وأعود إلى مربط الفرس، فأقول إن المراد بالمربط معروف لنا جميعا، وهو الخروج من تلك الأزمة المعقدة العجيبة التي ذكرتها آنفا، والمشكلة لا تكمن في المربط وكنها تكمن في الفرس الذي يمكن أن يخرج بنا منها، وقد تحيرت في أمره، فإن لدينا في مناصب الوزراء فرسانا لاشك في فروسيتهم وقدراتهم ومواهبهم وإخلاصهم، وهم فيما يقولون لنا في التصريحات الصحفية والبيانات التي تعرض علينا ليل نهار في التلفاز حينا وفي المذياع حينا آخر، إنهم يبذلون أقصى ما يستطيعون من جهد في الخروج بنا من الأزمة، وقد سبقهم إلى هذه المناصب فرسان آخرون لا يقلون عنهم فروسية ومهارة وكفاية وأمانة، فكيف لم نخرج من الوهدة بعد؟ولماذا نغوص فيها كل يوم أكثر فأكثر؟..

سأقص عليك هنا حكاية من تجاربي ربما أعانتنا على الاقتراب من الحل..

أثناء فترة عملي أستاذا في جامعة الكويت، كان علي في سنة من السنوات أن ألقي دروس الحضارة الإسلامية – وهي هناك متطلب جامعي عام لابد أن يدرسه كل طلاب الجامعة – كان علي أن ألقيها في كلية التجارة، وكان درسي يقع بعد درس في علم من علوم الاقتصاد يلقيه دكتور مصري همام، وكنت إذا دخلت الفصل بعده راعني منظر السبورة الخضراء، فدكتورنا الاقتصادي الهمام يملؤها أرقاما ومعادلات ومصطلحات لا أفهم منها شيئا، وكان منظرها يعجبني، فإن الخط جميل كأنه سلاسل الذهب فعلا، والسطور متراصة في تناسق، والسبورة كلها مشحونة من رأسها لناسها، حتى الإشارات الرياضية والجبرية بما في ذلك إشارة

الجذر، مرسومة بإتقان بالغ، حتى إن بعض الطلاب كانوا يصورونها بدلا من نقلها بخطهم، فقد كانت سبورات سيادته تحفا فنيا، وأتحف ما فيها كان إمضاء سيادته فى آخر السبورة، ومع أن التوقيع على السبورات ليس أمرا معروفا فى عالمنا - نحن معاشر العاملين فى التدريس - فإننى كنت استظرفها منه لأنها كانت تعرفنى باسمه مرة كل أسبوع، وتلاقينا مرة وهو خارج وأنا داخل، والتقينا بعد ذلك وتحدثنا، فإذا بسيادته فعلا بحر من العلم، أو هكذا بدا لى..

وكنا فى نهاية كل عام دراسى نحول مدخراتنا إلى مصر، والعقلاء منا كانوا يحولونها عن طريق واحد من المصارف المعترف بها رسميا فى الكويت ومصر، والتحويل عن طريقها سليم ومعقول وقانونى، وبعضنا كان يحسب نفسه أذكى وامهر، فهم يلجأون إلى طرق «دكاكينية» ملتوية كلها أخطار ومعاطب وسكك مخوفة، ولكنها تعطيهم إذا نفعت مكاسب مضاعفة، كلها سرقة ولا يبارك الله فيها أبدا.

وعدنا إلى القاهرة فى الإجازة مرة، فإذا نحن فى مصطافنا نلقى صديقا من العاملين معنا هناك، يقص علينا حكاية مأساة مضحكة وقعت: لقد هرب أحد أصحاب طرق التحويل الملتوية بكل المال الذى عهد إليه فى تحويله المغفلون والأغبياء واللصوص المتظاهرون بالسذاجة والبراءة وحسن النية، دون أن يكون أمامهم سبيل لاسترداد ما ضاع أو مقاضاة السارق، وفى مقدمة هؤلاء الضحايا كان صاحبنا الأستاذ العظيم ذو السبورات الأنيقة والعلم الغزير، وكانت مصيبته أثقل المصائب، لأنه إلى جانب عمله فى الجامعة كان منشارا يجرى فى خدمة التجار ويجمع المال أكواما دون رحمة أو حياء، ثم فجأة وقعت الكارثة وغرق الجمل بما حمل، وصاحبنا خسر فيما بلغنا على وجه التحقيق ما يصل إلى خمسة وعشرين ألفا من الجنيهات، هى مكسبه المتواضع فى عام.

وحققت السلطات هناك فى الموضوع وتنبهت إلى أن صاحبنا دكتور الاقتصاد منشار كهربائى أصيل، واختلف مع الجامعة فى شىء يبيح لهم إلغاء عقده ففعلوا، وعاد أخونا إلى مصر يتحدث عن سوء المعاملة والتعصب والغيرة والحسد، ومضت السنوات ونسيته، حتى ذكرته فجأة عندما قرأت اسمه رئيسًا لمجلس إدارة بنك، وأعلم بعد ذلك أنه بعد العودة المخجلة من الخارج أصبح عميدًا لإحدى كليات الاقتصاد، فوزيرًا ثلاث مرات، فرئيس مجلس إدارة مصرف..

وهذا يا سيدى واحد من الفرسان الذين رأيناهم يظهرون ويختفون خلال العشرين ثلاثين سنة الماضية، لكى يصلوا بنا إلى مربط الفرس، ومن الطبيعى ألا نصل، فدون دراسة، ودون تحقيق فى الماضى،ودون تأكد من الملكات، ولأسباب مغيبة فى أطواء ما يسمى بالأسرار العليا، يفتحون أمامهم أبواب مصاعد السلطان والقوة والغنى، ويصلون تسبقهم مقدمات تقول هذا هو بطل الاقتصاد، هذا هو المعجزة، هذا هو لودفيج ايرهارت الشرق، ودقى يا مزيكة الحزب، واكتبى يا صحفنا، وصفقوا أيها الناس، ودورى يا دوارة، وسيادة الوزير قال: وسيادة الوزير سيقول، وسيادته مسافر إلى جنيف لحضور مؤتمر الجات أو مجلس القات، وسيادته مسافر إلى نيويورك أو موسكو ليجرى مباحثات مع آلهة العصر والأوان، وسيادته يعود إلينا بعقود ديون هى أحكام على هذا الوطن بالسجن سنوات..

وفى ذات مرة نكون فى مطار جنيف نتنظر الاذن فى صعود الطائرة عائدين إلى الوطن العزيز الذى لا يبكيه سوانا، وينادوننا ويقولون لنا معذرة عن عدم استطاعتنا شحنكم إلى مصر اليوم لأسباب فنية، ولا بأس عليكم فستقضون هذه الليلة فى فندق من أعظم فنادق سويسرا، والشركة ستبلغ ذويكم فى مصر عن هذا التعطل، وغدا ن شاء الله تعودون إلى أرض الوطن بسلامة الله، ويحملوننا فى تكسبات، وكان عددنا قرابة الستين رأسا من

الغنم، إلى فندق البريزيدنت على شاطئ بحيرة جان جاك روسو أو بحيرة ليمان أو بحيرة جنيف، ومن باب الاحتياط اتصلت بأسرتى فى القاهرة لأبلغهم الخبر، فأجدهم على وشك الخروج للقائى فى المطار، وبالطبع لم يكن أحد قد اتصل بهم، على العادة لا أهمية للمواطن العادى ولا أهله، والمهم هو السيد الوزير مادام وزيرا يستحم فى الأضواء، وفى قاعة الطعام فى اليوم التالى نعرف أن «الأسباب الفنية» التى جعلتهم يتصرفون فينا على هذا النحو، هى أن حاشية السيد الوزير قد اشترت من البضائع مازاد وزن الطائرة ضعفين، وسلطات المطار هناك قالت إما البضاعة وإما الناس، والجواب طبعا البضاعة قبل كل شىء، البضاعة لا يمكن أن تنتظر ساعة ولكن الناس يمكن أن ينتظروا سنة لو أردتم، وفكرت وأنا أتمشى على ضفة بحيرة صاحب العقد الاجتماعى، وجعلت أسأل نفسى: ترى كم دفعت الدولة لحمل عفش حاشية السيد الوزير ما بين تكسيات وفندق وطعام؟ من المؤكد أن السفارة دفعت الحساب، فنحن هنا فى أوروبا، والفواتير لابد أن تسدد، ولو كنا فى مصر لحولونا إلى فندق قطاع عام حيث لا تدفع الفواتير الحكومية أبدا، ثم يتساءلون لماذا تخسر فنادق القطاع العام؟ ومن المؤكد أنه فى الوقت الذى دفعت فيه السفارة ربما مئات الألوف من الفرنكات ترفض القنصلية نقل جثة مواطن يموت فى المنطقة مفلسا، والرئيس السادات تدارك هذه المأساة، وأمر بأن تنقل جثة أى مصرى يموت فى الخارج، قادرا كان أم غير قادر، على نفقة الدولة، ولكن هذا كلام الليل الذى قال شاعر ألف ليلة إنه مدهون بزبد إذا طلع النهار عليه ساح، وفى نوفمبر الماضى ١٩٨٥م فقط رفض قنصلنا فى ميلانو نقل جثمان مواطن مصرى مات، بحجة أن اسمه غير مقيد فى القنصلية، واللوائح تقول إن المواطن الذى ينطبق عليه أمر الرئيس السادات لابد أن يكون قد قيد فى القنصلية قبل موته بستة شهور..

والسيد الوزير وصل إلى أرض الوطن فى طائرة أخرى سبقت طائرة الحاشية أو طائرة عفش الحاشية التى كانت طائرتنا، وأدلى وهو فى المطار

بتصريحات بعد تصريحات إلى الصحف، وتكلم فى التليفزيون مرات، ومصر عقدت أعظم صفقات تصدير عرفتها فى تاريخها، ودقى يا مزيكة، ودقت المزيكة ودقت ودقت، ثم توقفت عن الدق، والوزارة تغيرت، وزير جديد ظهر تحت الأضواء، ويخرج الوزير السابق من دار الوزارة ليحصد ثمرات جهاده الطويل فى سبيل مصر، ويأخذ مكانه رئيسا لمجلس إدارة شركة كذا أو بنك كذا، وفى صمت البنوك ووقارها يدخل سيادة رئيس مجلس الإدارة، ويدخل إليه مدير الشئون المالية: هذا مرتبك يا سيدى رئيس مجلس الإدارة وهذا بدل التمثيل وهذا بدل طبيعة العمل وهذا بدل التنقلات وهذا وهذا وهذا.. هنا لا أضواء ولا دعاية وإنما أموال فقط، وكما أننا نحن المواطنين العاديين لنا الحرية فى أن نشرب الشاى باللبن أو بغير لبن، فإن سادتنا الحيتان لهم الحرية فى أن يتناولوا الألوف بأضواء أو بدون أضواء، وماذا يهم؟ إن الحيتان تأخذ دائما، ومصر تدفع دائما، وديون مصر زادت بليونا آخر، وماذا يهم؟..

والوزير الجديد سيسدد بعبقريته كل ديون مصر، والسياسة التى وضعها وأقرها مجلس كذا ولجنة كذا ومؤتمر كذا، كفيلة بعلاج كل أدوائنا، وتدق الموسيقى، وتتلألأ الأضواء ثم تخبو، وديون مصر زادت بليون آخر.

والديون كلها ستدفع فى النهاية، والذين سيدفعون الديون كلها هم نحن المجاهيل الذين يملكون الحرية فى تناول الشاى بلبن أو بغير لبن، وفى يوم من الأيام سنتناول الشاى بدون سكر بل بدون شاى، ويومها سنملأ الكوب بالدموع، وساعتها سيتردد فى آذاننا صوت أبى البقاء صالح ابن شريف الرندى فى رثاء الأندلس:

لكل شىء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمان

□□□

أظنك يا سيدى القارئ قد فهمت لماذا تساءلت فى عنوان مقالى هذا عن الفرس؟ والمراد بداهة هو الفارس. وهذا هو المربط، فأين الفارس؟..

ربما كان السبب أننا ننسى دائما أن عظائم الأعمال ليس لها إلا عظام الرجال، إننا ننسى دائما قول أبى الطيب:

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغار صغارها
وتصغر فى عين العظام العظائم

لأن الذى يدور فى خاطرى أن وظائف المسئوليات الكبيرة لا يجوز أن توكل إلى أى شخص، لا تكفى عضوية الحزب ولا الصداقة أو الثقة الشخصية، لأن القدرة على حمل المسئوليات وحل المسائل القومية لا تتيسر لكل إنسان، وقد حضرت فى أسفارى مجالس يتحدث فيها وزراء كبار، وكنت أحس من مجرد أصواتهم وطرائق أحاديثهم أنهم ليسوا أى إنسان، وكلامهم ليس أى كلام، بل هناك قوة فى الكلام، ونبرة سيادة فى الصوت، وهناك روح سيادة فى الهيئة العامة، ولا أقصد بالسيادة هنا ما نجده فى الكثيرين من المسئولين عندنا من الكبرياء و(النفخة) فالرجل الكبير أو العظيم حقا لا يمكن أن يكون متكبرا، وإنما سيادة الإنسان تتأتى من شخصه وعقله وكلامه، ولابد كذلك من لمسة من الموهبة كبيرة أو صغيرة، ولابد أن يكون هناك اتساع ملموس فى الأفق والذهن، لأن المطلوب من كبار المسئولين كثير، وليس من الصالح قط أن تضع رجلا تحت حمل المسئولية الضخم لمجرد أنه من حزبنا مثلا.. فنحن بهذا نظلمه ونظلم الحزب ونظلم الوطن، وفى الغالب يضطر الرجل الذى وضع فى ذلك الموضع دون كفاية حقيقية إلى الكذب والتحايل والتصنع.

ولكنى أقول إننى كنت فى العام الماضى فى بريطانيا، وزرت مجلس العموم، لأننى كنت أريد أن أرى المسز تاتشر، وأسمع صوتها فى البرلمان،

ومسز تاتشر* بلا شك قائدة تتميز بسيادة وقدرة على الإمساك بزمام الحوادث وتوجيهها على النحو الذى تراه أنه الأصح، ومن حسن الحظ أنه كان من بين المتحدثين فى تلك الجلسة السيد جفرى هاو وزير الخارجية والمستر نيل كينوك رئيس الفرع الرئيسى فى حزب العمال، وأقول الحق إن أحدا من هؤلاء الثلاثة لم يقل كلاما فيه إلهام أو شىء باهر، ولكن كلامهم فيه سيادة وعلو همة ورقة صوت فيها رياسة وثقة فى النفس، ولم أقتنع بكل الكلام الذى قالوا لأن كلامهم لم يخل من «تقنية» السياسة وتحايلها، ولكنى أحسست وأنا أستمع أن هؤلاء ناس فرسان يمكن جدا أن يقودوا أممهم أو أتباعهم على الأقل إلى المربط، وأن المواطن الإنجليزى - سواء كان من حزبهم أو لم يكن - يشعر أن وطنه آمن مادام أمثال هؤلاء على الدفة، لأن الأمم اليوم ليست بحاجة إلى عباقرة تقودها، لأن الأمم تخطت مرحلة النمو الحضارى والوعى السياسى التى تجعلها تسلم زمامها إلى رجال مستبدين من طراز تشيرشيل أو ديجول، والإنجليز رفضوا تشيرشيل وأنزلوه من مركز القيادة فى انتخابات حرة، كما فعل الفرنسيون مع ديجول، حتى الديجوليون الفرنسيون الذين يمثلهم جاك شيراك لو سئلوا إن كانوا يريدون أن يعود إليهم شارل ديجول بلحمه وعظمه لأجابوا بالنفى لأنهم ديجوليون سبقوا ديجول، وهو بالنسبة لهم كالوالد بالنسبة لكل منا: نحن إلى ذكره ونفخر به ونقتفى آثاره، ولكننا لا نتمنى عودته لكى يجلس منا مجلس المربى والموجه المطاع، حتى هنا فى مصر: لو أننا سئلنا إن كنا نتمنى أن يعود سعد زغلول ليقودنا بشخصيته القاهرة وأبوته الطاغية، لأجبنا بالنفى، لأننا تخطينا هذه المرحلة، وأصبحنا نفضل أن نخطئ ونحن نقود أنفسنا على أن نصيب ونحن فى قيادة سعد زغلول، إننا نحب ذكراه ونعجب به من بعيد، نعجب به على أنه كان قائد عصره ولكنه ليس قائد عصرنا، ولكل زمان دولة ورجال، وهذا زماننا ونحن رجاله، أو ينبغى أن نكون رجاله..

---

* كانت رئيس الوزارة البريطانى فى ذلك الفترة .

أرجو أن يكون سيدى القارئ قد فهم عنى ما أريد أن أقوله بكلامى عن المربط والفرس أو المربط والفارس..

من حسن حظى أننى لا أعرف أحد من وزراء اليوم أو نوابه معرفة شخصية، وأننى بهذا أنظر إليه نظرة واحد من عامة الناس، ومع أننى لا أشك فى أنهم أهل أمانة وإخلاص فإننى- لأمر ما - لا أشعر أن فيهم الفرسان الذين يمكن أن يقودونا إلى الهدف المنشود أو الغاية المرجوة أو مربط الفرس، ولولا أن الرئيس مبارك هناك لما كنت أدرى كيف يكون حالى، فهنا أجد العقل الراجح والقلب الطاهر ولسان الميزان وصمام الأمان وضمان الحرية التى هى نور الحياة. أما فيما عدا ذلك فإننى أرى المربط ولا أرى الفرس أو الفارس، ونحن اليوم فى عصر خطر مخوف، ورجال الحكومة يقولون مثلا إنهم يحاربون الغلاء، وهم فى الواقع يحاربونه، ولكن سيوفهم فى المعركة ليست بواتر، فهم ليسوا بفرسان هذه المعركة، ونحن نشكو من الغلاء، والوزراء أيضا يشكون من الغلاء، وحكاية عبد المعين الذى أتينا به ليعيننا فإذا هو أحوج إلى العون.. تتكرر كل يوم، ودون اتهام أو قلة أدب أقول: هذا هو المربط فأين الفرسان يا جدعان؟